أيمن العتوم

تِسعةَ عَشر

رواية

«النّاسُ نِيامٌ فإذا ماتُوا انْتَبَهُوا»

[عليّ بن أبي طالب]

(١)
النّفخة

لا أدري كم مـرّ عليّ هنا في هذه الظّلمـة المُحـيطة بكلّ شيء ، مـئـات السّنين ، آلاف ، ربما عـشـرات الآلاف . . . لا أدري على وجـه الدّقّـة ، وأنّى لبـشـريّ قـادم من الفـانيـة أنْ يدري ، إنّه العلم الّذي لم يَخُصّ به أحدًا . تقلّبتُ بصعوبةٍ في القبـر الضّيّق من شقّي الأيمن ، وأضـجعتُ نفسي على ظهري ، مُرجعًا رأسي إلى الأسفل ، لأواجه الظُّلمـة من جـديد ، سـقف القـبـر يكاد يلتـصق بأعـضـائي ، أشـعـر باختـناق ، وقليلٍ من الغـثـيـان ، بسـبب الرّطوبة الّتي صنعـهـا التّراب الطريّ والظّلمـة الطّويلة الأمـد ، الشّمس غـابتْ منذ ذلك اليـوم الّذي دُفِنْتُ فـيه ، لـم تكنْ عـيناي يوم أنْ دُفنتُ مُطفأتَين ، فلقـد كنتُ أُبصِر بهـمـا كلّ شيء ، غـيـر أنّني لـم أكنْ قـادرًا على أنْ أحـرّك أيّ عضـوٍ من جسـدي ، ولا أنْ أَفُـوه بكلمـة ، كنتُ أودّ أن أسـتـمْـهلهم قليـلاً بقـراءةِ شيءٍ ما من كتابٍ ما لتسكن روحي قبل أنْ أُسجّى طويلاً في القبر . في اليوم المشهود ، اجتمع كثيرٌ من أهلي ، وقليلٌ من أصدقائي ، وكلّ أورارقي الّتي أيقنتُ أنّها ستدخل معي في القبر مع أنّ أحدًا لـم يرها ، ولـم يشـعـر بهـا مُكوّمـة فوق الأرض بعـيـدةً قليـلاً عن الشّـاهدة الّتي ستحمل اسمي . حضورٌ نورانيٌّ آخر كان يفوق عدد البشريّين رأيتهم يحومون حول الحفرة ، يتلون صلواتٍ لم أفهمها ، وإنْ كنتُ أجد بردَها

بين كتفَيّ ، لم أتعرّف في البشر على وجهٍ سوى وجهِ أبي . شيخ في التّسعين ، شابَ كلّ شيءٍ فيه ، وابيضّتْ عيناه من طول حزنٍ لم أدركْ لوعته إلاّ حينَ حدثَ ما حدث ، يُمسِك بحفنات من التّرابِ يُقرّبها من أنفه ويشمّها طويلاً قبل أنْ تُتَمتم شفتاه الرّاجفتان بكلماتٍ غير مسموعة ، ثُمّ ينثرها على القِماش الأبيض فتتحوّل إلى بياضٍ جديدٍ على هيئة ياسمين يفوح شذاه حتّى يكاد يلامس السّماء السّابعة أو هكذا خُيّل إليّ . كان أبي يبكي بُكاءً صامِتًا ، يرتجّ جسده في اضطرابٍ شديد كأنّ نفخة الصّور قد سَرتْ فيه ، يقترب منّي يتلمّس بيدَيه الحانِيتَين وجهي المكشوف ، ويقرأ بأصابعه السّلام عليّ ، وينحني ليقبّلني ، وعددٌ من البشر أظنّهم إخوتي يدفعونه ، مُمسكين بذراعه وهم يحاولون التّهدئة من رَوْعه ، وهو يمدّ ذراعه الأخرى إليهم متوسّلاً أنْ يتركوه يفعل ما يريد . لم يكنْ قادِرًا على أنْ يمنع دموعه الّتي اخضلّتْ بها لحيته البيضاء الكثيفة ، ولا أنْ يُخفي نشيجه المكبوت الّذي يُسمَع بين فينةٍ وأخرى . أُهيل التّراب ، فانتشرت الظّلمة في كلّ شيء ، جلسوا حول القبر كطيورٍ مُهاجرة ، وردّدوا من خلفِ أبي بعض الدّعوات . ثُمّ ما لبثوا أنْ سارعوا بالقيام مُغادرين المكان كأنّ شبحًا يُطاردهم ، ووحده بقي غارِقًا في دموعه وأساه ، وهو يتلو الصّلوات دافِنًا رأسه الّتي مُلِئتْ حزمًا وعِلمًا في صدره ، جالسًا القرفصاء ، كأنّما غُرِس في الأرض . عاد إليه بعضُهم ، رجاه أنْ يُغادر معهم ، ما الفائدة من أنْ يُطيل الجلوس على القبر ؛ فابنه الّذي ظلّ يُشبهه طوال حياته قد مات .

هناك ؛ في الوحشة ، قال لي القبر : «لقد طال العَهدُ بك ، أنسيتني ومِن تُرابي خُلِقت ، وأنتَ ابن هذا الثّرى ، ها أنتَ ذا تعود ؛

لطالَما انتظرتُ أوبتَك؟» ثُمّ أقبلَ إليّ بشوق ، فضُغطتُ ضغطةً انفرطتْ منها حمائلي ، وصرختُ صرخةً فَزِعتْ لَها أسراب جَمّة من الطّيور فوق أعالي الأشجار في أقاصي المعمورة ، وهربتْ من هَولها وحوشٌ في البرّية ، ودخلتْ في جحورها بناتُ آوى في الجِبال ، ونهضتْ من مجاثمها غزلانٌ مذعورةٌ في الخمائل . ثُمّ قيل : «هذا غَيْضٌ من فيض» . فأُرسِلتُ ، وخُلّي بيني وبينَ مَضجعي ، ثُمّ وفدتْ أرواحٌ من كلّ حدبٍ وصوبٍ تستقبلني ، يحفّون بي ، ويُهنِّئونني على السّلامة ، وما كانتْ لتكون ، ويسألونني عن أخبار أهليهم وذويهم مِمّن تركناهم خلفنَا ، سألوا كثيرًا وقليلاً ، وما دَروا أنْ بضاعتي مُزجاة ، وأنّ عِلمي قليل ، وأخذتُهم بالهَوْن ، فأجبتُهم إلى ما أستطيع بما أعلم ، وتجاوزتُ عمّا لا أعلم ؛ فإنّ علم الدُّنيا إلى الآخرة غائض . وسألني أحدهم : ما فعلَ فلان؟ فقلتُ : إنّه مات قبلي فما أدراني؟ فبكى ، حتّى رأيتُ دموعه تسيل على خدّيه ، ثُمّ أطرق وقال : «إنّ لله طريقَين ، فهذا الّذي نحن فيه طريق ، وذاك طريق ، لقد ذهبَ إلى أمّه الهاوية فإنّه لم يأتِنا إلى هنا» . وقال أحدهم وقد رأى تعبي واجتماع الأرواح عليّ تُمطرني بالأسئلة : «دَعوه ليتسريح ، فإنّما خرج من كَربِ الدُّنيا ، فلا تجمعوا عليه كَربَين» . فرأيتهم أجابوه ، وانسلّوا من حولي ، وانحلّوا عن عنقي ، وانفرطوا من بين يدي ، وانسابوا كما ينساب الماء على الأرض المائلة ، وطار آخرون إلى أشجارهم . وعُدتُ أنا إلى مرقدي وما نبتتْ شجرتي بعدُ ، ثُمّ غرقتُ في سُباتٍ أطول بكثير من سُبات أهل الكهف ، وشعرتُ بأنّ رحلةً قصيرةً قطعتُها في الهمّ قد انتهتْ ، وأنّ راحةً من نوعٍ ما سوف تأخذني في أعطافها إلى أجلٍ معلوم .

مَنْ يدري كيف يمرّ الزّمان على السّاكنين هنا؟!! الظّلمة سيّدة كلّ

شيء ، بعد ليالٍ قصيرة يُمكنك اعتياد هذا الظّلام الكثيف ، تتخلّى عينا الجسد عن دورهما ، وتبدأ روحك تتلمّس المكان . كنتُ أشعر بأنّ سنواتي الّتي قضيتُها على الفانية كانتْ كافية ، وأنّ رحلتي الجديدة تحتاج إلى راحةٍ طويلة ، ولذلك نمت ، نمتُ نومًا عميقًا لم أجرّبْ مثله من قبل .

فوق . . . هناك فوق التّراب ، كانتْ أُمَم تَتوالد ، وحضارات تنشأ ، وأخرى تَبيد ، وبشر يعبرون هذه الحُفَر ، يأتون لاهثين من أماكن بعيدة ، ومن تحت أرجلهم – دون أنْ يدروا ، وفجأةً – تبتلع الواحدَ منهم حُفرةٌ كُتبَ في قلبها الاسم بوضوح ، كلّ حفرةٍ ابتلعتْ صاحبها الموسوم دون أنْ تُخطئه ، لم تكنْ هناك من نسبةِ خطأ أبدًا . ذراري يتكاثرون في كلّ مكان أكثر من تكاثر الفطريّات والهُلاميّات ، وآخرون يسقطون في العراء ، وحيواناتٌ تَنفُق ، وأشجار تتساقط ، وغيوم تمرّ بأرقام لا تُحصَى قاطعةً قبّة السّماء راكضةً نحو المجهول ، وذئابٌ تعوي ثمّ تخمد ، وكلابٌ تهرّ ، وثعالب تتقافز معلنةً بداية النّهاية ، وأفاعٍ تبدّل جلدها ، ثُمّ تستسلم لِقدَرها تاركةً سُمّها لأخريات يأتين تِباعًا ، وفي البرّيّة المفتوحة على المُطلَق ، لم يعرف أحدٌ كم من أسدٍ أو فهدٍ أو ذئبةٍ قضتْ نحبها ، ولم يستطعْ أحدٌ أنْ يُحصي عدد الحشرات الّتي التهمتْ غيرَها ، ولا تلك الّتي ديستْ بأقدام لكائنات حيّة لم تتوقّعها لحظةً ، وفي السّماء انكسرتْ أجنحةُ بعضِ الطّيور فهوت ، وسقطتْ طائرات ، وظهر آكِلو لحوم البشر ، وخَربتْ ممالك ، وفسدتْ أبينة ، واحترقتْ أخرى ، وعمّ خرابٌ متواصلٌ كلّ شيءٍ على الأرض ، وَوُلِدتْ من رَحِم هذا الخراب حياةٌ جديدة ، ورأى الله كلّ شيء ، وسُجّلتْ في الصّحائف الدّقائق من الأمور ، ونبتتْ أشجارٌ يانعة من جذوع تلك الخربة الهرمة ، ثُمّ عمّت

الفوضى البشر الجُدُد ، فاقتتلوا ، وانتشرت الحروب بينهم كما تنتشر الأوبئة ، ومن رَحِم الموتى عاشَ أطفال في مأساة ، ومن رَحِمهم عاش آخرون في بُلَهْنِية ، ودارت الأرض دورتَها ، فلم يعد يعرفُ أحدٌ مَنْ يلد الآخر ، الحياةُ تلد الموت ، أم الموت يلد الحياة!!

وأنا ، كنتُ أسمع كلّ ذلك وأشاهده ، وكنتُ أسجّل في عقلي ما استطعتُ أنْ أحتفظ به في ذاكرةٍ صلدة ، كانت لديّ قدرة عجيبةٌ في حفظ الأسماء والمشاهد والحَيَوات ، وكنتُ قادرًا على تمييز كلّ شيءٍ تعرضه شاشةٌ عملاقة ، تنتصب مثل مرآة سماويّة ، تنعكس فوقها كلّ أفعال البشر أمامي ، شيءٌ واحدٌ لم أكنْ لأميّزه ؛ إنّه الزّمن ، كانت الأزمنة تتداخل وتتوالد ثُمّ تتشابه حتّى يختلط عليّ التّمييز ، ومع ذلك فإنّني وإنْ كنتُ لا أُحصي للزمّن عِداده ، فإنّني أستطيع أنْ أحصي لكلّ أمّة زمانها الخاصّ بها . وحُرمتُ من قدرة الجمع بين الأزمنة ، ومعرفة تراتبيّته الّتي أوصلتْني إلى هذا اليوم . اليوم الّذي سيكون أصعبَ بكثيرٍ ، بكثيرٍ جِداً من اليوم الّذي أُنزِلتُ فيه من فوق الأرض إلى باطنها!!

لم أشِخْ هناك ، ولم تضعفْ ذاكرتي ، ولا هَرِمَ الجلد الّذي يُغطّي روحي ، غير أنّي لطول عهدي بهذا المكان ، ضِقتُ ذرعًا بتطاول العُمُر ، وتلك طبيعتي البشريّة الّتي لم تفارقْني ، الرّتابة قاتلة ، وأنا مع غرائب ما رأيتُ وأرى ، لا أزال في مكاني الوحيد ، وعَليّ أنْ أنهضَ من هنا ، هكذا حدّثتُ نفسي : لقد آن أنْ أنهض .

كانتْ تلك ليلة طويلة ، شعرتُ فيها باختناقٍ شديد ، لم أستطع التّنفس ، انحبس الهواء الفاسد الرّطب العَفِن في صدري ، وعبثًا حاولتُ أنْ أخرجه ، كان يضغط وهو يتعاظَم على صدري ، حتّى

أيقنتُ بأنّ صدري سينفجر ، وستتبعثر أجزاءٌ لَزِجةٌ من لحمه على رأسي ، لكنّ يدًا خفيّةً ، يدًا نورانيّة ، من تلك الّتي تقرأ فيها الفرج واضِحًا ، وتشعر بالحياة ماثلةً في انسابيّة أصابعها الّتي تتحرّك باتّجاه أنفي ، كانتْ قد بدأتْ بالظّهور ؛ مسحتْ بوقارٍ على أنفي ، فانفجر ما في صدري بزفرةٍ قويّة ، بعثت الهواء الفاسدً إلى الخارج . صرختُ صرخةَ الولادة الأولى كأنّني أُبعَث من جديد ، علا صدري كقُبّة ظهر نَمِرٍ يتمطّى ، مثل علوّه في تلك اللّيلة حينَ كان يُنعَش دون فائدة بصَعقِه بالكهرباء في مستشفى أُقيمتْ فوقها من بعدُ عشراتُ المقابر عبر عشرات العهود لأمم تعاقبتْ دون انقطاع على ذات المكان . ارتاح جسدي بطوله ، وبدأتُ أتنفّس بشكلٍ طبيعيّ ، دخلتْ موجةٌ من الهواء من خلال مسامات التّراب ، وتسلّلتْ من عند قدمَي ، ذكّرتْني بالبُخار الّذي صعدَ حارًا كثيفًا إلى الأعالي في اللّحظة الّتي انقطعتْ فيها جوارحي عن الحركة ، تمدّدتْ موجة الهواء تاركةً قدمّي ، مُلامسةً جسدي ، صاعدةً إلى رأسي ، حامتْ قليلاً فوق وجهي ، قبلَ أنْ تدخل أنفي بسكينة عجيبة ، وفجأةً ، سرتِ الحياة في الجسد الميّت ، نفخةٌ واحدةٌ في الأنف كانت كفيلةً بإيقاظي ، واستيقظتُ . عرفتُ أنّني أستطيع أنْ أتحكّم بجوارحي في تلك اللّحظة ، وأنّني أملك الإرادة في استخدامها على النّحو الّذي أريد!

(٢)
عَلَيْها تِسْعَةَ عَشَر

أوّل شيءٍ نطقتُ به : «أنا كُلّي لكَ فكُنْ لي» . وضربتُ حجرَ القبر بيدَيّ ، لم يتحرّك في الحجر شيءٌ ، كان صخرةً ثقيلةً تجثمُ على القوائم الّتي تحميني من خُرورها على صدري وتمزيقه . رحتُ أضربُ بيدَيّ من جديد ، وأحرّك رجلَيّ في حركةٍ عشوائيّة لعلّي أستطيع أنْ أزحزحَ هذه الصّخرة ، وأنهض ، لكنّ كلّ محاولاتي ذهبتْ سُدًى . شعرتُ بالفزع ، أنا حيّ ، وحبيسٌ في هذا القفص الحجريّ الّذي يلبسني لباس الثّوب . تقلّبتُ على جانبيّ بصعوبة ، استندتُ على باطن كفّيّ ، ودفعتُ الصّخرةَ بظهري ، محاولاً مرّةً أخرى زحزحتها ، ولكنّها كانتْ كمن يسخر منّي ومن ضعفي . رفعتُ رأسي بما تسمح به المسافة الكافية ، حاولتُ أنْ أقرأَ شيئًا على باطن الصّخرة ، ولكنّ الظلمة كانت شديدة الكثافة ، تمدّدتُ في حركةٍ يائسة . هتفتُ في أعماقي : «ولْيكنْ ما يكون . لقد كنتُ نَسْيًا مَنسيًّا قبل قليل ، ولن يُزعِجني أنْ أعود إلى سابق عهدي طوال تلك العهود السّحيقة . كلّ ما عليَّ فِعله أنْ أحتفظ برباطة جأشي وأخلدَ إلى النّوم» . ولكنّ الرّوح الّتي تسري في أعضائي راوغتْني : «لقد صرتَ حيًّا ؛ لم تعدْ كما كنتَ من قبل ، شعلةُ الحياةِ سرتْ في جسدك ، وإنْ لم تخرجْ من هنا ، فستموت من جديد» . أرعبني الصّوت القادم من الرّوح . صمّمتُ على

أنْ أغادر محبسي الخانق هذا . فكّرتُ في أنّ شيئًا مثلَ الكتابات السّحريّة على جدران الكهوف القديمة قد يكون طريقي إلى النّجاة ، عليّ أنْ أقرأ هذا المكتوب على الصّخرة ، ولكنْ كيفَ السّبيل إلى ذلك والظّلام اللّعين يُغطّي كلّ شيء . خطرتْ ببالي فكرةٌ جديدة ؛ ألا يُمكن لأصابعي أنْ تقرأ ما هو مكتوبٌ هنا؟! الأصابع عيونٌ في الظّلام . مرّرتُ أصابعي على باطن الصّخرة ، تلمّستُ بعض النّتوءات الّتي تشي بحروفٍ منقوشةٍ عليها ، غمرتْني الفرحة ، لا بُدّ أنّ قراءتها تقود إلى انفراجٍ من نوعٍ ما ، بدأتُ من المنطقة الّتي تعلو رأسي مباشرة ، قرأتُ بأصابعيً الحرفً الأوّل ، كانَ حرفَ العين ، سُرِرتُ لنجاحي في قراءته ، وجدتُ في الأمر غموضًا لذيذًا ، تقدّمتُ في تمرير أصابعي ، وقرأتُ الحرف الثّاني والثّالث والرّابع والخامس ، تشكّلتْ لديّ كلمةٌ ، هي : (عليها) ، لم تُعطِني الكلمة اليتيمة أيّ دلالة ، كان امتداد يدي يُجبرني على أنْ أنحني بجذعي متابعًا الحروف الّتي تمتدّ بشكلٍ طوليّ من رأسي حتّى قدَمَيّ ، لن يكون بمقدوري قراءة الأحرف كلّها ، إذْ إنّني لن أقرأ إلاّ تلك الحروف الّتي يسمح بها انحناء جذعي في صخرةٍ لا ترتفع إلا بأقلّ من ذراعٍ فوق رأسي . كان هناك فراغٌ في المكان المتوقّعً للحرف السّادس ، فعلمتُ أنّني سأبدأ بقراءة كلمة جديدة ، وأنّ هذا الفراغ يدلّ على انتهاء الكلمة السّابقة . استطعتُ أنْ أتجاوزه ، لأقرأ بأصابعي انبساطة الحرف القادم السّابع ، إنّه التّاء ، ثُمّ ارتطم رأسي بالصّخرة ، شددتُ على جذعي لأصل الحرف الثامن ، وبصعوبة علمتُ أنّه السّين ، شددتُ على جذعي لأصل الحرف التّاسع حتّى كادتْ أنفاسي تختنق ، لكنّني خمّنتُ من خلال جوفه العالي أنّه العين الّتي قرأتُها في البداية . . . لم أستطع أنْ أقرأ المزيد ، إنّها (تسع)

على ما يبدو هذه الكلمة الّتي توصّلتُ إليها للتّو ، انقلبتُ ذات اليمين وذات الشّمال لأتمّ الكلمة الثّانية ، أو أقرأ الكلمة الّتي تليها ، لكنّني لم أتمكّن من ذلك أبدًا ، حاولتُ أن أتلمّس الحروف الباقية بباطن قدمَيّ لكنّني عييت ، في حوزتي كلمتان : (عليها تسع) لا أدري إنْ كانت الكلمة الثّانية كاملةً أم لا . قدّرتُ أنّ الكلمات المنقوشة على باطن الصّخرة لن تكون أكثر من ثلاث كلمات باعتبار انتهائها عند انتهاء الصّخرة الّتي يُساوي طولُها طولَ جسدي مُمدّدًا . أصابني غضبٌ شديدٌ وأنا أحني جذعي لعلّي أحظى بقراءة جديدة ، لهثتُ ، يئستُ ، أرحتُ جسدي مستسلمًا ، ورحتُ أردّد الكلمتَين لعلّي أتوقّع الكلمة الثّالثة : (عليها تسع . . .) لكنّني نمت . نمتُ فجأة ، كأنّ ثوبًا من نعاس غَطّى على عينَيّ ، وغشي جوارحي كلّها فهمدَتْ . في النّوم ، صَحتْ سنواتي الأربع الأولى ، في البرد الشّديد كان أبي يوقِظني في ليالي رمضان من أجل الذّهاب إلى صلاة الفجر ، في الطّريق الطّينيّ إلى المسجد البعيد ، كنتُ أتعثّر وأنا لا أكادُ ألحقُ به . لم يكنِ النّداء قد تعالَى بعدُ من المآذن العتيقة ، وكان صوتٌ ساحرٌ ينبعثُ في الأجواء يرتّل بعضًا من الآيات النّديّة ، ولا أدري إنْ كان أبي يسمعه معي . كنتُ أنسى نفسي في الطّريق ، وأسرح في الصّوت الّذي تتخلّل أمواجه مسامات جسدي ، جسدي الّذي يرتجفُ في الصّقيع ، وصوتُ أبي يأتي من أمامي وهو يحثّني على الإسراع ، كان الصّوت يُذهلني عن نفسي ، ويخفّف من ذلك الارتجاف الّذي يُحيق بكلّ عضوٍ فيّ ، وهو يردّد : «عَلَيْها تسعةَ عَشَر» . يَمُدّ القارِئُ الصّوتَ ، ويُخيّل إليّ أنّه وقف عند هذه الآية ، وهو يُعيدها عشرات المرّات ، ولا يتعب من تكرارها ، وعلى باب المسجد ، أرى تابوتًا على يسار الدّاخل ، وأنظر إليه

في وجلِ الطّفل الّذي يُشاهد محفّة الموت ترقد في غموض يزيده ضوءٌ غازيّ منبعث من قوس المدخل يُلقِي بالظّلال على حافّته ، كان التّابوت منكفئًا على وجهه ، بطنه إلى الأرض ، وقاعه إلى أعلى ، وأستمهل أبي قليلاً عند المدخل وأنا أحاول أنْ أقرأ الحروف المخطوطة على جانبه ، ويشدّني من يدي ، لم أكنْ أقرأ بشكلٍ جيّد ، ولكنّ الكلمات الّتي تردّدتْ كثيرًا في مسامعي عبر الطّريق ، تلتصق هي الأخرى هنا على جانب هذا التّابوت ، وأراها تتحرّك ، وأراها تُصدِر الصّوت ذاته : «عليها تسعة عشر» .

استيقظتُ بحركةٍ سريعةٍ ، ارتطمتْ جبهتي بالصّخرة ، صرختُ بكلّ ما في بشريٍّ مفزوعٍ مذعورٍ يتهيّأ للخروج من القبر : «عليها تسعةَ عشر» . وارتفع غِطاء القبر عاليًا في الفضاء ، طار كأنّه قطعةٌ من الصّفيح تلعب بها الرّيح ، وانفجر إلى شظايا صغيرة ، ووجدتُني واقِفًا على قدَميّ مثل كائنٍ أسطوريّ!!

(٣)
لماذا أكلتَ من الشّجرة؟

غطّيتُ على عينَيّ من ضوء الشّمس السّاطِعة ، فركتُهما بسرعة ، محاولاً استعادةَ بصرٍ حقيقيّ لبشريّ مرّتْ عليه دهورٌ لا يعلمها إلاّ الله في الظّلام . ببطء استطعتُ أنْ أُبصر . رفعتُ رأسي ، وأرسلتُ طرفي ، كان فضاءً ممتدًا بلا نهاية ، وأرضًا منبسطة على مدّ البصر ، رمليّة ، وصلبةً مع قليلٍ من الهشاشة . لا شجرةَ تبدو في الأفق ، لا نبتةَ تَنجُم من باطن الأرض ، لا حيّ يلوح في مدى الرُّؤية ، لا صوت ، لا حركة ، وحدي في هذا الفضاء الشّاسع كما لو كنتُ آدمَ الّذي أُهبِطَ على الأرض ، تحسّستُ جبهتي من خدشٍ بسيطٍ جرّاء ارتطامها بحرف العين البارز في صخرة القبر ، كانت الشّظايا ترقد على مبعدة وأراها ما زالتْ تتدحرج دون أنْ تُصدِر إلاّ حسيسًا لا يسمعه إلاّ مَنْ أرهفَ السّمع ، كما لو كانت فقاعات تغلي . فتحتُ فمي ، تمرّنتُ قليلاً على تحريكِ فَكّيْ قبل أنْ أصرخَ صرخةً مُبهمةً أشقّ بها سكون الفضاء ، الفضاء الّذي لم يسمعني ولم يردّد صدى تلك الصرخة البائسة ، نظرتُ إلى نفسي ، كنت عريانًا إلاّ من رباطٍ ممزّق قد حال لونه الأبيض ، لا شيءَ آخر يستر جسدي ، تلمّستُ ذقني كانتْ قصيرة ، وشعر رأسي خفيفًا . مسحتُ بكفّيّ على جذعي ، تساقطتْ عنه بعضُ الأتربة ، هتفتُ في نفسي ساخِرًا : «إنّه أجملُ استيقاظٍ ممكنٍ لبشريّ

من تحت الأحافير» . داهمني شعورٌ مباغتٌ بالعطش . أجلتُ بصري في المكان ؛ لا شيء ، أين يُمكن أنْ أجد ماءً في هذا المدى اللامتناهي . انفرجتْ شفتاي عن بسمة خفيفة سرعان ما تحوّلتْ إلى قهقهة ، خفتتْ قليلاً ليحلّ محلّها بُكاء فجائعيّ : «هأنذا وحدي إذًا . ما أقسى ما فعلتُ حتّى أجازَى بعقوبة فظيعة كهذه» . هكذا فكّرتُ . أسكتَ العطش بكائي . ابتلعتُ ريقي . كان طَعمه مريرًا . شيءٌ من التّراب دخل في فمي ، فزادَ من عطشي . ركضتُ عشر خُطوات ، ثمّ تسمّرتُ مكاني ؛ إلى أين أركض ، وكلّ الجهات بلا جهة ، وكل المعالم بلا هداية . الرّكض في أيّ اتّجاه يُساوي الرّكض في أيّ اتّجاه آخر ، ويساوي العدم . فلأركضْ إذًا إلى العدم . كيفَ يُمكن أنْ يكون العدم جهةً أركضُ إليها!! مَنْ يسمع سؤالاً عدميًا كهذا؟! سأركض . بلا شكّ ، لا أملك إلاّ أنْ أركض . أركضُ هاربًا من أيّ شيءٍ ومن لا شيء وإلى لا شيء ، لكنّه بلا شكٍّ سيكون ركضًا باتّجاه البحث عن الحياة ، الحياة الّتي يبدو التّعريف بها هنا ضربًا من الجنون!!

ركضتُ ، حافيًا كما ولدت ، وعريانًا كما أتيت ، ركضتُ ، وركضتُ حتّى لهثتُ ، نظرتُ خلفي ، كان ما قطعته من الأرض يسخر منّي ، لا شيءَ قد تحقّق سوى اللّهاث ، الفضاء ما زال يمتدّ أمامي ومن خلفي بلا نهاية . السّماء تتواطأ هي الأخرى ، فلا تبدو تنحني في الأفق لتقول إنّ هناك شيئًا ما خلف هذه المساحات الشّاسعة يوحي بأيّ وجودٍ لأيّ حياة . لا شيءَ . لا شيءَ ألبتّةَ . لا أحد . لا أحد على الحقيقة سواي . لكنّني مع ذلك ركضت . كانتْ في كلّ صباح تنمو على جسدي شعرةٌ جديدةٌ ، أتسلّى بعَدّ الشّعرات الّتي تنمو فيَ كلّ يوم ، الأمل صنّارة السّاذجين أمثالي ، وأنا أركض . ليس أمامي سوى

أنْ أركض بلا توقّف . ركضتُ عامًا . عامًا كاملاً ، بليله ونهاره ، بصباحه ومسائه ، بِحَرّه وبَرده ، بالخوف ، بالأسئلة الّتي لا إجابات لها ، بالجوع ، بالأسى ، بالفَقد ، بكلّ ما فِيّ من ذاكرة ؛ كنتُ العَدّاء الأوّل بلا مُنازعٍ في حلبة سِباق ليس فيها سِواي ، أعدو كمن يُطاردُ حُلْمًا هاربًا بأقصى ما أوتي من قُوّة ، تُسابِقُ رِجلاي الرّيح نحو هدفٍ أجهله لكنّني لم أجدْ أشدّ منه هدفًا حفّزني على عَدْوٍ جنونيّ مُماثِلٍ!! الأيّام تمّر ولا شيءَ سوى مزيدٍ من العطش . عامًا كامِلاً لم تدخل إلى جوفي قطرةُ ماءٍ واحدة . اليأس ينشب أظفاره في روحي . الكُفر بكلّ شيءٍ يتحرّش بي . النّدم على تلك الصّحوة من ذلك القبر الجميل يأكلني . جرّبتُ أنْ أعودَ إلى القبر لأموت من جديد تعويضًا عن حياةٍ لا تُشبه الحياة في شيء . أنْ أموت لأمتلِئ بالدّود خيرٌ لي من أن أمتلِئ بهذا الفراغ الآثِم ، ولكنّني لم أعرف في أيّ جهةٍ كان يرقد ذلك القبر ، بحثتُ عن تلك الشّظايا الصّغيرة الّتي كانتْ ما تزال تتدحرج يومئذٍ بخُبث ، فوجدتُ عشرات الآلاف منها في كلّ مكانٍ ، كلّها تشي بموضع مُحتملٍ لقبرٍ ربّما كان هنا أو هنا أو هناك! استلقيتُ على الأرضّ ، نظرتُ إلى السّماء ، كانتْ مُحايدة ، لا شيءَ فيها يقول شيئًا ، تمنّيتُ أنْ تتحرّك ، أنْ تعبرها سحابة ، أنْ يتغيّر لونها الأرجواني ، لكنّها ظلّتْ جامدة كأنّها تتحدّى صبري وإيماني واحتِمالي . تمنّيتُ أنْ تلعنني ، تمنّيتُ أنْ تسقط عليّ فتسحقني ، أنْ تنشق الأرض البلهاء فتبتلعني ، لكنّ أيّ شيءٍ من ذلك لم يحدث . فكّرتُ أنْ أمسكَ بإحدى تلك الشّظايا الصّخريّة ، وأقطع عِرقَ يدي وأنتحر ، لكنّ الحجر كان يتحوّل إلى إسفنجة حالما أقرّبه من ساعدي ، رفعتُه في إحدى المحاولات إلى عنقي أريد أنْ أتخلّص من هذه الرأس الّتي أحملها على

كتفيّ ، لكنّه ذاب كما لو كان وردةً تتفتّت بين يدي صبيّ . صرختُ ، لكنّ الصّرخة لم تُسمَع كأنّها دخلتْ إلى جوفي لا خرجتْ منه . استغثتُ بصاحب القدرة المُطلقة أنْ يُريني أيّ شيء ، أنْ يبعثَ لي بشريًا مثلي ، أو جنّيًا ، أو حيوانًا ، أو حتّى حيوانًا مُفترسًا يأكلني ويُريحني . لكنّ عويلي جفّ دون أنْ يُلقي له أحدٌ بالاً . هتفتُ في داخلي : «أنْ تبقى عامًا كاملاً بلا ماء يعني أنْ تفنى ، فلماذا لم أفنَ حتّى الآن؟!! لماذا لم أمتْ ، لماذا لم تنهرسْ عِظامي ، لماذا لم أتحوّل إلى تراب؟!! ألستُ من التّراب وإلى التّراب أعود؟! فلماذا ما زلتُ حيًا إلى اليوم؟!» . وركضتُ . ركضتُ في كلّ الجهات وبكلّ ما أستطيع . ألهثُ ، أسند كفّيّ على رُكبتَيّ ، ألتقطُ بعضَ أنفاسي ، ثُمّ أرسل نظرةً إلى الجهة الّتي تمتدّ أمامي وأركض من جديد . أسقطُ من شدّة الإعياء ، أرتاح قليلاً وأنهض لأجرّب الرّكض في اتّجاه آخَر . لا بُدّ من أنْ أجد حياةً ما في يوم ما ، لا بُدّ من أنْ يُسْفِر هذا الرّكض العبثيّ عن نتيجة ، ولو بعدَ ألفَ سنَة ، ماذا عليّ لو انتظرتُ ، ليس هناك أمامي من خيارٍ آخر ، فلأركضْ إذًا!

مرّ عامٌ آخَر بلا نتيجة ، كانتْ لحيتي قد طالتْ حتّى غطّتْ منتصف بطني ، والتفّ بعضُها على بعضٍ لطول عهدها بالماء . وكان شعري قد استرسلَ حتّى غطّي كتفيّ ، وسقطتْ شعرات شواربي على شفتَيّ فلم تعودا تظهران . وانسدلتْ خُصُلاتٌ أُخَر من شعر رأسي فغطّتْ على عينَيّ فأصابتْني بعمًى مُؤقّت . ورغم كلّ ذلك ما زلتُ أركض . ركضتُ عامًا ثالثًا ، الرّكض كان يعني بالنّسبة لي الأمل كلّه . لكنّ الأمل ظلّ أعزَ طريدةٍ لم أُفلح في الإمساك بها . لم تبقَ بوصةٌ في جسدي لم يُغطّها الشّعر الكثيف ، صار شَعرُ جسدي ثوبي . وكان